

مفهوم تفاهة الشر عند القديس أوغسطين

The Banality of Concept The Evel In the Thought of saint augustine

أ. مزواد نسيبة¹

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الحاج لخضر باتنة الجزائر

Hajarm05@yahoo.fr

تاريخ الوصول: 2018/10/17 / القبول: 2019/05/30 / النشر على الخط: 2019/09/15

Received: 17/10/2018 / Accepted: 30/05/2019 / Published online : 15/09/2019

ملخص:

يعتبر البحث في إشكاليته مصدر الشر أكبر مأزق واجهته الديانة المسيحية لكونه إتهام مباشر لخيرية الله ، فإذا كان الله خير خير كلي، وهو مصدر كل موجود متعين ومفارق، والشر موجود متعين؛ فان الشر مصدره الله، هذا ما تعارض مع خيرية الله المطلقة، وللخروج من هذا المأزق يقتضي أن نؤمن بإله آخر مصدر للشر حتى نبعد الشر عن الله الخير، أو ننفي من الأصل وجود الشر، لكن لا الإله الثاني مقبول ولا الشر ينتفي. فالبحث هو مقاربه لفكرة الشر عند رجل الدين-الفيلسوف أوغسطينس الذي حاول اجترار حل يحافظ على نسقية الدين المسيحي ويقنع الفيلسوف والمنطقي على حد سواء.

الكلمات المفتاحية : شر، حرية، موت، تفاهة، خطيئة.

Summary :

Researches about the source of evil is considered as a big dilemma that Christianity encountered, for it is a direct accusation of the goodness of Allah. If Allah is totally good, and he is the source of everything physical and spiritual that exists, besides evil existence. Thus the source of evil is Allah, which contradicts the goodness of Allah. To get out of this dilemma, we have to believe in another God, that is the source of evil. Or to deny the existence of evil. Nevertheless, neither second God nor denying the evilness is acceptable. The research is an approach to the idea of evil with the clergyman and philosopher Augustine, who tried to find a solution to protect the Christian doctrine as well as convincing the logicians and philosophers.

Key words: evil, freedom, death, banality, sin

1- المؤلف المرسل: سميرة مزواد، الإيميل: Hajarm05@yahoo.fr

مقدمه:

إن هذا العجز الذي يعانيه الانسان -العجز الروحي-، سببه عدم مقدرة على التماهي في الكلي الكامل، حتى آدم لم يتمكن من ذلك على الرغم من أن جسده كان صالحا خاضعا، بسبب الارادة والحرية التي منحها الله له فحدثت الخطيئة، لكن لماذا لم يفعل ذلك باقي الملائكة على الرغم من امتلاكهم ذات الحرية؟ فالحرية إذن لا تمنع التماهي ولا ترغب دوما في السقوط والفساد، بل الإرادة والفعل هما اللذان يحركانها ويختاران أي إمكانات أنسب للصالح الكامن فيها، صحيح أن الانسان الأول (آدم+ حواء) كان صالحا، لكن لم يدم ذلك طويلا فالرغبة في "السلطة" التي فاقت رغبتهما في التماهي مع الكامل والعيش "تحت"، الرغبة في التفوق على "التحت" والمماثلة بالله "بل الله يعلم أنه يوم تأكلان تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر"⁽¹⁾ "الك" التي حركت الإرادة وقررت أن تقود حريتها نحو "الفعل" وهو التمرد والذي تجسد في "الأكل"؛ الأكل هنا لم يكن فعلا عاديا بقضم ثمار شجرة، وإنما رمزته تقول أكثر من ذلك فهو "تحد" لأوامر الخالق وخروج عن "العبودية" وعن "التحت"، ورغبة في الوصول إلى حرية كاملة ربما، حرية تتجاوز ذلك الامر الالهي القائل ب"المنع"، لا تأكل من الشجرة.

سجن "التحت" كان محرضا قويا للانعتاق، فحرية آدم التي كانت مقيدة بعدم الاقتراب من "شيء ما" وليكن الشجرة، كانت ترغب في حرية أكبر أو حرية كاملة أو حرية ليس فيها قيد، لكن هذا التمرد تسبب في سقطات للانسان أهمها السقطة الروحية التي أدت إلى موته ميتات كثيرة، فمحاولة انعتاقه من العبودية أخضعه لعبوديات أكثر: عبودية للخطيئة، عبودية للجسد، عبودية للموت...، إلى أن جاء السيد المسيح ليعيد لنا الحرية وكأن الله يريد أن يخبرنا أن الحرية لا تتحقق إلا به ومن خلاله، وأن حريتنا من حريته وضمناها. الان آدم مغترب عن الله، وصار عبدا لذاته الفاسدة وعارفا ما الخير؟ وما الشر؟، وهنا ظهر مفهوم جديد وهو الشر. فما حقيقة الشر في المسيحية وعند أوغسطين؟.

الإيمان المسيحي حث على اجتناب الشر، وحث على ضرورة التقيد بتعاليم السيد المسيح، والمؤمن المسيحي هو الذي يلتزم بتلك التعاليم حتى يعيش في ملكوت الرب بجوار يسوع فيجتنب الشر، لكن المؤمن المسيحي السؤل هو الذي يبحث عن هذا الشر ومصدره، فالمنطق العقلي السوي وقع في مأزق حقيقي يتضمن التالي:

- إذا كان الله مصدر كل موجود،
- الشر موجود،
- إذن الله مصدر الشر

تعرضت هذه المفارقة لهجوم كبير من قبل الفلاسفة وغير السماويين، في محاولة منهم لاثبات أن الشر مصدره الله، فحتى إن نفينا الشر عن الله وأرجعناه لشهوات الانسان وميولاته، وقلنا أن الشر كسلوك أو "شعور" ناتج عن الانسان، ألا يحيلنا هذا أيضا إلى الله، باعتباره خالق الانسان وخالق كل ما فيه من سلوك وشعور إلى كل ذرة فيه؟ هنا وقف رجال الدين الفلاسفة للرد

(1) سفر التكوين، الاصحاح(3،5).

على ما يعتبرونه "إدعاءات"، لكنها في الحقيقة "إستنتاجات منطقية" ناتجة عن مقدمات وضعها رجال الدين أنفسهم؛ أليس الله مصدر كل شيء في الوجود، وللشر حيز في الوجود مهما كبر أو صغر ولا يمكن إنكار ذلك بأي شكل من الاشكال.

ونفي الشر عن الله الخير يقودنا للاستدلال التالي:

- الله خير خير كلي. (مقدمة 1)
- الله مصدر كل الوجود. (مقدمة 2)
- اذن الشر غير موجود. (نتيجة 1)
- أو الشر موجود من مصدر ثاني غير الله (الطاوية، الزرادشتية، المانوية) (أو النتيجة 2)

في الارادة الحرة:

إذا أردنا أن ندرك حقيقة الشر لدى أوغسطينوس فيجب أن نعود إلى حيث عاد هو، إلى عمق الانسان وجوانيته، فنعود معه إلى عمق أوغسطين ذاته ونستخرج من مسيرته مكامن الشر وأسبابها ومصدرها، فنجد أن الزاوية في فكرة الشر عنده تكمن في ما قاله في كتابه في الارادة الحرة: "ولما كان فرسا ضالا هو أفضل من حجر لا يظل، مادام الحجر لا يملك من أمره حركة ولا إدراكا، فإن الكائن الذي يخطئ بملء إرادته الحرة هو أفضل من الكائن الذي لا يخطئ البتة لأنه يفتقر إلى الارادة الحرة"⁽¹⁾. والارادة الحرة هي "اتصاف صاحبها بنزوع واع متمكن من نفسه، (...) وهي تدل بالجملة على نزعة نهائية مستقرة، أو ميل قوي يحمل صاحبه على الفعل، (...) الارادة هي القوة التي هي مبدأ النزوع وتكون قبل الفعل"⁽²⁾، كما تظهر في قول الرب يسوع: "يشبه ملكوت السماوات إنسانا ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس فلم يريدوا أن يأتوا"⁽³⁾ فالرب يقر بحرية الافراد ومسؤوليتهم المطلقة على كل سلوكياتهم واختياراتهم، أي هي ذلك النزوع الحر الواعي المتعلق نحو الفعل هذا دون سواه دون أي عنف و إن كان رمزيا أو أي ضغوطات خارجية مهما كان نوعها كالتهديد في قول الرب "موتا تموت"⁽⁴⁾.

إن رفض الآخر للخطيئة (الأخطاء) التي نقترفها يجعلنا نعيش في مجتمع من المنوعات والعقوبات، يحسها البعض كسجن يسلب حريتهم، فما يكون لهم إلا أن يستعيدوها من خلال فعل كل ما يرفضه المجتمع، بهذا "الفعل" يطلق العنان للحرية ويجعل صاحبها يحس أنه انسان كامل الارادة. هذا ما تؤكدته القصة الواردة على لسان صاحبها "كانت بالقرب من كرمنا

(1) جاريت ب. ماثيوز، أوغسطين، تر، أيمن فؤاد زهري، المركز القومي للترجمة-آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013، ص178.

(2) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، 1982، ص58.

(3) إنجيل متى، الاصحاح(22-3)

(4) سفر التكوين، الاصحاح(2،3).

شجرة إحص (كمثرى) محملة بالثمار، ولكن لا لون ولا طعم لها، ورغم ذلك ذهبت بصحبة فتیان فاسقين في وقت متأخر ذات ليلة حسب عاداتنا الشريرة باللعب واللهو في الأزقة حتى أوقات متأخرة، وقمنا بهز هذه الشجرة وسرقة أحمال كبيرة منها لا لتأكل منها. بل لكي نلقي بها إلى الخنازير لتذوقها هي أيضا. كنا نحب أن نفعل ذلك لا لشيء إلا لأنه كان مكروها من الآخرين¹

ولأن المخرض هنا كان تحدي الآخر، لم يحس أوغسطين بعد "الفعل" الذي قام به بالندم (الأم)، بل كان ينتشي بالانتصار الذي حققته الحرية، ظنا منه أنها استعادت ذاتها وانتصرت على ساجنيها. إذ لم يكن الهدف من وراء السرقة الأكل أو بيع ما سرقوه أو الاستفادة منه بأي شكل من الأشكال، حتى أنهم قاموا فوق ذلك برمي ما سرقوه طعاما للخنازير؛ بل كان الهدف هو القيام بفعل السرقة في حد ذاتها "وهكذا كانت خطبتي وحدها هي مصدر متعتي، فحتى إذا تذوق فهي إحدى هذه الثمرات لم أشعر بمذاق الثمرة، وإنما بحلاوة الاثم، (...ف) رحت كسجين أحاكي الحرية"²، لم يكن أوغسطين يستمتع بتبعات السرقة بل كانت المتعة في السرقة كفعل مستقل عن مخلفاتها، هذا ما أصر عليه وكرره في أكثر من موضع في الاعترافات، فهل كان حريصا على أن يجعل من فعل السرقة سلوكا طائشا لا هدف حقيقي من ورائه؟ "هكذا كانت خطبتي وحدها هي مصدر متعتي، فحتى إذا تذوقت إحدى هذه الثمرات لم أشعر بمذاق الثمرة وإنما بحلاوة الاثم"³. على الرغم من أن هذا الطرح لم يقنع الكثير من اللصوص الذين يمتنون السرقة لكسب لقمة العيش، أو للسيطرة على مناطق والاستحواذ على ما-من فيها،

صحيح أن لا هدف حقيقي من كل ذاك الإحص، لكن السرقة كانت بالنسبة له فعلا تحريرا ثوريا من كل قيد فرض عليه، وإن كان القيد أخلاقيا قيميا كالنصائح التي تقدمها له أمه "مونيكا"؛ يقول "كانت تحذرنني سرا ألا أرتكب الزنى، وخاصة ألا اشتهي امرأة رجل آخر على الإطلاق، لقد بدت هذه النصيحة وكأنها نصيحة نسائية، وبالتالي من المخجل أن أطيعها (...فهرولت في عملي خجلا من أن أكون أقل من أقراني سفها)"⁴

كل هذا التمرد الذي عايشه الرجل ابتداءً -وهو أحسن من ينتقي الألفاظ والمصطلحات في الاعترافات وأحسن من يرتب الأفكار ترتيبا يجعلنا نستنتج قبله الفكرة التي يرنو إليها -بدأ تمرده أقول بحادثة دشن بها كل طيش قام به لاحقا "وفي عامي السادس عشر تركت المدرسة إلى حين بسبب قلة موارد والدي. فعشت معهما، فكانت تلك الحقبة مليئة بالعبث حتى إن أعصان رغباتي الدنسة علت فوق رأسي بغزارة، ولا يد تقتلعهما. وعندما رأني أبي وأنا أسبح في الماء، لاحظت نموي وزحف الرجولة على شبابي الثائر، راح يستبشر قدوم أحفاد له في المستقبل، لذا قام و زف البشرى لأمي وهو سعيد باضطراب الحواس

(1) أوغسطين، إعترافات القديس أوغسطين، تر، برقي شاكر، مر، ابراهيم صموئيل، دار النشر الاسقفية، القاهرة، دط، 2005، ص29.

(2) المصدر نفسه، ص ص31-32.

(3) المصدر نفسه، ص31.

(4) المصدر نفسه، ص28.

هذه التي بسببها قد نسيك العالم يا الله⁽¹⁾، يعود الجسد للظهور مرة أخرى فزحف الرجولة لجسد أوغسطين وبداية تدفق رغبات الجسد هو ما جعل آدم يغطي جسده بورق التوت، فرغبات الجسد وتلبية النفس للأمر بدافع تحقيق الحرية، والحرية هنا هي مطلب الجسد في أن يحقق كل نزواته التي كلما تحققت كلمت خفف صوت النفس وابتعد القلب عن الله، فالحرية كفعل نشده أوغسطين حينها كانت حرية الجسد وكذا النفس الخاضعة للجسد البعيدة عن الله وهي النفس الميتة في حالتها الثانية.

سلطة الجسد خلقت لنفسها منظومة مفاهيم أخلاقية قيمية وتحررية خاصة بها، تجعلها تحاول تحقيقها بأي طريقة وإن كانت تخالف عادات المجتمع وقيمهم وتخالف حتى الأوامر الإلهية، بل وترى في فعلها التحرري حقا من حقوقها وعلى الآخر تقبله، لأن الأسس التي بني عليها فكرها تختلف عما هو سائد، ويصبح بذلك الآخر الملتزم بمنظومة مجتمعه عدوا يحاول التمرد عليه وتخريب أساسياته فكريا وسلوكيا، (تخريب الشجرة)، كما وتصبح الأوامر الإلهية سجن استبدادي من صاحبها الديكتاتوري الذي لا يصلح أن يكون ربا بقدر ما يكون مستبدا إذ يخلق النزوات ثم يهددنا إن اتبعناها، فيكون هذا سببا في أن يبتعد عن الله، لكن الحقيقة أن الله هو من ابتعد إذ لا يمكن أن يجتمع الله وشهوة إطلاقا؛ فالله هو من ابتعد عندما ظن صاحبنا أنه هو من بادر بالابتعاد.

الموت كشر حتمي:

مهما حاول الانسان المتعالي بعبقريته أن يقبض على العالم ويسود عليه، ومهما حاول أن يتجاوز إشكالاته وإشكالات الآخر ومهما اعتقد أنه تجاوزها بكل ما خلقه من زخم تكنولوجي متزف التطور، تبقى هناك إشكالية يعايشها كل يوم إنها "الموت"، هذا المأزق الذي عجزت عبقرية الانسان عن إيجاد إكسبير ينجيها منه، إنها التجربة التي عجز الأحياء عن إيجاد مفهوم دقيق لها أو معرفة ما يحدث فيها، إنها السر الذي وقف العقل البشري عاجزا أمامه، إنها النقص الكامن فينا، إنها النزوال الذي نقول إليه في كل دقيقة تمر علينا، إنه الفناء الذي ينتظر كل موجود على هذه الأرض، إنه الفقد الذي يفقد الانسان توازنه، إنه الألم الذي يواجهنا فيكشف عن ضعف الانسان أمام جبروته وهو يخطف كل من حولنا ويتوعدنا بالمثل، إنه الشقاء الذي توعد الرب به آدم إن أكل الشجرة، الموت هو السر الوحيد المتعلق بالأفراد كل على حدتهم، هو السر الوحيد الذي لا يشترك فيه الافراد إنها تجربة شخصية بحتة. إنها التجربة الوحيدة التي يستمتع فيه كل فرد بفردانيته، لا نملك أي يقين تجاهها، هل هي مواجهة مباشرة مع العدم؟ أم هي بوابة لاختراق عالم أكمل؟

وبعيدا عن كل هذا القلق فالموت عكس الحياة التي منّا الله على الانسان الاول ثم سحبها منه، ولكي يعيدها له دخل التاريخ وافتدى بابنه وأقامه فقمنا معه، أي لم يعد موتا أبديا، بل موتا تليه حياة أخرى "لقد أتى ربنا يسوع المسيح بألوهيته، لكي يفني الفناء الذي فينا"⁽²⁾. فبات واضحا أمام الانسان أن الوجود الحقيقي هو الوجود الذي لا يعتريه فساد، هو الوجود الذي لا يطرأ عليه تغيير، إذن فالموت هو بحث داخلي عميق للعودة إلى حالتنا الأصلية الأولى، عودة "للوجود الحقيقي" الذي

(1) المصدر نفسه، ص 27.

(2) أوغسطينوس: حياتنا الابدية، تر: الانبا إيساك، دير السريان، لبنان، ط 1، 1998، ص 26.

خلقنا على صورته وشبهه، هذا لا يعني أن وجودنا الآن هو وهم أو خيالات أو زيف، لكنه يحمل في ذاته بذور فناءه. وجود يسير قدما نحو الموت، يقول أوغسطين "ثم بدا لي أنه مع أن الأشياء قد تفسد، إلا أنها مازالت صالحة، لأنها لو لم تكن كذلك لفسدت تماما، ولو كانت صالحة بدرجة عالية، لما فسدت، (...) لذلك إما أن الفساد لا يضر، وهذا شيء غير ممكن، أو أن لكل فاسد ينتقصه الصلاح وهذا مؤكد. بيد أنه إذا كانت هذه الأشياء تخلو من كل صلاح، فسوف تفسد تماما، أما إذا ثبتت وجودها، فسيصير حالها أفضل من ذي قبل، لأنها ستحي في عدم فساد، وليس ما هو أكثر استهجانا من أن يدعي أحدهم أن هذه الأشياء تصير أفضل إذا فقدت كل صلاحها"⁽¹⁾

ويمكن تلخيصها فيما يلي:

الحالة الأولى: هي الحالة التي يكون فيها الصلاح كليا وهي متحققة لدى الملائكة ولدى آدم قبل أن يخطئ.

الحالة الثانية: الفساد الكلي الذي لا صلاح فيه؛ وهي غير متحققة لأنها إن تحققت فهذا ينفي عن الله صفة الصلاح، إذ لا أثر للصلاح هنا أو أن الله الكلي صلاح له كينونة لكنها مستقلة عن هذا الوجود، بمعنى أنه ليس من الله.

الحالة الثالثة: إمتزاج الصلاح والفساد لكن الأصل فيها هو الصلاح، وهذا ما أكده أوغسطين في كثير من المواضع بمعية الكتاب المقدس في قوله "لذلك فطالما هي (الأشياء) موجودة، فهي صالحة، ولهذا السبب بعينه نقول، إن كل ما هو موجود، هو صالح"⁽²⁾، وتزداد نسبته وتنقص حسب اختيارات الأفراد وفق إرادتهم الحرة بمعنى قد تكون إرادة الأفراد صالحة، وتختار السمو ومحাকা الكمال المتعالي وقد تكون فاسدة وتختار الانعكاس في الجسد والتراب فينحصر الخير والصلاح. وفي هذه الحالة يظهر الانقسام الذي تمنع أوغسطين في دراسته؛ إنقسام المدينة السماوية والمدينة الأرضية، بل إن المدينة الثانية منقسمة على ذاتها بسبب شر سكانها "لنعطي مثالا يوضح انقسام مملكة الشيطان وهو أن روح الطمع وروح التبذير ينتميان لمملكة الشيطان، وهما منقسمان على نفسيهما، فالذي يطمع لا يجمع، والذي يبذر يسرف ويفرق"⁽³⁾

المادة والشر

إن لم يكن الله هو مصدر الشر، فهل نعتبر المادة هي المصدر؟

المادة وكل ما يرتبط بها من أعراض آنيه خاضعه لسلطتي الزمان والمكان، وما يترتب عن هاتين السلطتين من قوانين حتمية: فناء نقص موت تغير تحديد ومحدوده وغيرها، كلها تعرض الانسان لجملة من النزوات تزيد من انعطافه عن طريق الخير، وعلى رأسها الجسد، الذي عزم أن يتمرد على النفس كما تمردت هي على خالقه، فهل تكون المادة عموما بمغرياتها هي مصدر الشر الذي يبحث عنه فيتفق بذلك مع الأفلاطونية المحدثه؟ هل يجعل القديس للشر مصدرا فيعطيه بذلك وجودا مستقلا، ونعترف إذن به في هذا العالم ويتفق حينها مع أصحاب المذاهب الثنائية كالزرادشتية والمانوية ؟ يجيب الفيلسوف أوغسطين على

(1) أوغسطين، إعرافات القديس أوغسطين، مصدر السابق، ص 116.

(2) المصدر نفسه، ص 116.

(3) أوغسطين: التجديف على روح القدس، تر: تادرس يعقوب ملطي، بيروت، ط2، دت، ص 7.

كل هذا القلق الذي يعصف به بالعودة الى الكتاب المقدس في قول الرب "ورأى الله كل ما عمله فاذا هو حسن جدا، وكل مساء وكل صباح يوما سادسا"⁽¹⁾، كل المخلوقات هي حسنة إذن لا شر فيها، وهو ما جعل صاحبنا يصل لعدم أي صلة تربط الشر بالمادة، والقول "بأن المادة لا يمكن أن تعتبر شرا حتى ولو لم نر فيها شيئا سوى مبدأ بسيط للامكان واللاتعين"⁽²⁾، حتى مغريات المادة حسنة جدا وضرورية للعيش السوي المعتدل، بل وإن العقل يطلبها لكن دون إفراط أو تفريط "والواقع أنه يسرع إلى كل ماهو دعاية وتصلط وصلف وإلى كل ما شابه ذلك من تلك الاشياء التي بها يظن الكثيرون من المتطرفين والاشقياء انهم يحوزون الفرح والسلطة، وفي الواقع إنه ليضممر ويتضاءل بسبب الدنئات والمخاوف والغم والشهوة وكل ما شابه ذلك، (...). ولكن بعد أن يجد السعادة ينظر إليها (...). ويستمسك بها، وإذ يخرج من تأثير ذلك الفراغ، لن يعود إلى تلك الاشباح الخداعة، التي بعد أن يعانقها، تسقطه عن إلهه وتخفيه في ظلماتها"⁽³⁾.

تعريف الشر:

هنا تماما تبدأ الاجابة عن إشكاليتنا وإشكالية أوغسطين الأساسية التي تفرعت عنها الكثير من المشكلات الفلسفية الشائكة، يقول صاحبنا: "هذه هي طبيعة الشر التي كنت أبحث عنها، وأتساءل حولها: "من أين يأتي الشر؟"، فالشر ليس جوهرًا، لأنه لو كان كذلك لكان خيرا، فالشيء إما أنه جوهر غير قابل للفساد، ومن ثم يصبح خيرا أسمى، أو أنه جوهر فاسد، وهو لم يكن يفسد إن لم يكن فيه صلاح وبالتالي تصورت وبدا لي، أنك خلقت كل الأشياء صالحة. وليس هناك جوهر على الإطلاق لم توجده. لذلك كل الأشياء موجودة، لأنها صالحة جدا، نعم هي كذلك لأن إلهنا خلق كل شيء، حسن جدا"⁽⁴⁾، إذن انحسار الصلاح والخير لا ينفي عنه الجوهرية، نعم الخير جوهر ولا جوهر غيره وأي ظهور لعامل جديد ما هو إلا انعكاس لهذا الانحسار أو النقص، وبهذا يكون الشر هو نقص الخير هو ابتعاد عن الجوهر.

يعرف أوغسطين الشر بربطه بالخير، إذ لا يعطيه استقلالية خاصة به ليجعل له تعريفا خاصا، بل يجعله تابع للخير ولا يعرف إلا به يقول: "إن النقص في الخير شر، فإن تعرض الخير في الكائن إلى النقصان، لابد أن تبقى له بقية من كيان وبوسع هذه البقية أن تعيده إلى كيانه الأصلي، لأنه مهما بلغ هذا الكائن من صغر، فلا يسعنا أن ندمر الخير الذي يجعل منه كائنا، ما لم ندمره هو نفسه (...). ونخلص بالتالي إلى تلك النتيجة المدهشة: بما أن كل كائن خير بذاته، فإذا قلنا أن الكائن الفاسد كائن شرير، كأنما نقول إن ما هو خير هو شرير، وليس من شرير سوى الخير، والحال أن كل كائن خير ولا وجود لما هو شرير، مادام

(1) سفر التكوين، الاصحاح (1، 21).

(2) ايتين جلسون، روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر، امام عبد الفتاح امام، مكتبة مدبولي، مصر، ط3، 1996، ص165.

(3) أوغسطينوس، في الحياة السعيدة، تر، يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007، ص120.

(4) المصدر نفسه، ص 116-117.

الشر لا كيان له بحد ذاته"⁽¹⁾. هذه النقلة التي أحدثها أوغسطين إذ قتل أهريمان ونفي اليانغ وكل جوهر مستقل بذاته، لا وجود للشر ككيان لا وجود للشر أصلاً، إنه خير منحسر، إنه تماماً كالمرض الذي يصيب الجسد فهل هناك مرض ابتداء؟ طبعاً لا، بل هو كنتيجة لنقص في الصحة، إذن ما هو المرض غير خلل حدث في الجسم أو مناعة فقدت بعد أن كانت تحمي الجسد من أي خلل، كالطبيعة السلمية التي خلقها الله خيرة ثم يحدث بفعل الإرادة الحرة أن تهاجمها عوارض جديدة لم تكن موجودة قبلاً ليعيش الفرد في صراع بين الطبيعة الخيرة والردائل الشريرة إلى أن ينتصر أحدهما على الآخر، الشر كالمرض كلاهما يظهران بعد أن يحدث خلل في الطبيعة الأصلية الخير والصحة.

لا وجود للشر: "إن الشر في حد ذاته لا شيء، فهو بالمطلق شيء سلبي. وهكذا نرى على الفور أنه من المستحيل أن نفكر في الطبيعة الجوهرية للشر حيث أنه لم يتم تعريف الشر ك(شر) بل ولكن من خلال الإشارة إلى كينونة أخرى مختلفة عنه"⁽²⁾، وهذا ما قزم الفكرة التي كانت سائدة بمواجهة بين الله (الخير) والشیطان (الشر) أو الشر عموماً، فالشر عند فيلسوفنا لا يرقى أن يواجهه الله أو أن يوضع في كفة معه، وإن وجد القارىء أن أوغسطين يستخدم كثيراً تقابلات بين الله والشیطان مثلاً في قوله: "لا يجوز أن نضطرب لكثرة من يحالفون الشيطان وقلة من يتبعون الله، الحنطة أقل من التبن كميّاً، ولكن كما أن المزارع يعرف أن يتدبر كومه التبن الكبيرة، هكذا فإن الله الذي لا يعير جمهور الخطأة أهميته، يعرف أن يتدبر أمرهم لئلا يلحقوا الفوضى والفساد في إدارة مملكته، حذار أن نفكر في أن الشيطان قد انتصر لأنه اجتذب إليه عدداً كبيراً من الناس، لأنه من الممكن التغلب عليه بعدد قليل"⁽³⁾، فهو إنما يقصد بما انجذاب الناس نحو النزوات في مقابل ابتعاده عن الفضائل، ولا يعني أبداً قوة مقابل قوة.

الشیطان إن ضرر فإنما يضر البشر وحدهم، ولا عذر لهم مدام أنه إنوجد في ذواتهم بارادتهم الحرة ولا دخل لله فيه، أما الله فهو أعلى من أن يكون في مواجهة مع هذا العرض المسمى "شراً"، يؤخذ عليه فقط أنه تحدي الله وتمرد على أوامره العادلة، يقول أوغسطين: "إذ ذاك يصبحون له أعداء بفعل إرادة المقاومة وليس بالقدرة على الإيذاء، الله ثابت لا يتغير ولا يفسد، بيد أن الرذيلة التي تقاوم الله ليست شراً، بل لأنفسهم، وليست شراً بقدر ما تفسد فيهم خير طبيعتهم وفي الواقع، الرذيلة مناقضة، وليست الطبيعة لمناقضة لله (...) الشر لا كيان له، الطبايع التي أفسدتها الرذيلة الناتجة عن الإرادة الشريرة، ليست شريرة إلا لكونها ضحية لرذيلة بينما هي جيدة بصفاتها طبايع"⁽⁴⁾.

(1) نقلاً عن هنري إيرينييه مارو ، أوغسطين والاعسطينية، تر، سعد الله سمیح حجا، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007، ص74.

(2) كريستيان نادو، المفردات والاسلوب، تر، شادي رباح نصر، دار الناي، بيروت، ط1، 2014، ص95.

(3) أوغسطينس، تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي، دارالمشرق، بيروت، ط1، 2007، ص57.

(4) أوغسطينوس، مدينه الله، تر، يوحنا الحلو، مج2، دار المشرق، بيروت، ط2، ص2007، ص62-63.

الشر إذن ليس جوهرًا، ليس ذاتًا مستقلة، ليس الشيطان، الشيطان هنا أخذ دور تفجير المكبوت داخل الإنسان، إخراج ما يريد ويخاف من عواقبه، الشيطان ليس إلا رمزا يحمل دلالات عميقة، هل الشيطان من أخرج الإنسان من الجنة؟ لا الشيطان فقط فتح الإمكانيات أمام الإنسان، وجه نظره أمام رغبات كانت مخبوءة بين الخوف من الله وحب الله، حب الله يمنعني من القيام بما أحبه لنفسي، الشيطان وضع حب الله جانبا وقال: اختر الآن ما تريد بكل حرية ودون قيد، الحب قيد، نعم هو كذلك مادام أنه فوق إرادتي، ومتى ما أتيت لي فرصة الاختيار وأعطيت لإرادتي الحرية التهمت الشجرة، الشيطان فتح عيني، رأيت الحرية، ورأيت جسدي العاري، عار من كل قيد، جسد حر ينبض حياة.

الحية أحيل المخلوقات لم تخدعني بل أرثني الجانب الآخر الذي أعماه حب الله، أعماني حب الله فلم أعد أرى سواه، الحية أحالتني لرؤية ما سواه، الحية هي عقلي الذي انتفض على قلبي الأعمى، وانفتحت عيني، الشجرة محرم أكلها، محرم معرفة سرها، الشجرة هي مكبوتاتي المحرمة. هي كل ما هو مدفون بداخلي وأعجز عن معرفة سره أو الاقتراب منه حتى لا أموت موتا، الشيطان، الحية، الشجرة ليست شخصيات واقعية وإن كانت كذلك فهي هنا ليست سوى وسائل لأعرف من خلالها ذات الإنسان. لأعرف نفسي بنفسي. الشيطان، الحية، الشجرة هي أنا، أنا المحرمة.

أوغسطين نقلنا بتفسيره لمشكلة الشر إلى مستوى آخر من التفكير، مستوى يحسب له لم يسبقه إليه غيره، بعد أن أعاده لحجمه الحقيقي كونه مجرد عرض تابع لا جوهر له و"الأمر الأهم بالنسبة لسلب الجوهرية عن الشر هو أن الاعتراف بالشر يؤسس رؤية فقط معنوية للشر، فإذا كان السؤال: "من أين أتى الشر؟" يفقد كل معنى أنطولوجي، فإن السؤال البديل "من أين أتى فعلنا للشر؟" يهبط بمسألة الشر كلها من كرة الفعل (التصرف) الإرادة"⁽¹⁾. بمعنى أنه مجرد فعل ناتج عن اختيار معين وربما لو قلت أنه مجرد "رد فعل" على إختيار معين سيكون موافق لاوغسطين حقه، فالفعل هو الاختيار والمقصود هنا هو اختيار آدم، أين لم يكن هناك شر بالاساس، فآدم إختار وفق إرادته الحرة، فنتج عن ذلك نقص في الخير؛ بمعنى أنه نتيجة للفعل أو "رد الفعل".

كما وأن الشر مشكلة شخصية كل مسؤول عن اختياره، ولا يفهم من وراثته الخطيئة أننا ورثنا الشر ومجربون عليه، الأمر الوحيد الذي أجبرنا عليه هو "الموت" أما الشر فهو خاص بالفرد، له أن يفعله وله أن يتجنبه كل حسب "حبه لله" أو "حبه لذاته" ونستطيع أن نثبت ذلك بالإستعانة بالكوجيطو الأوغسطيني "أنا أخطئ إذن أنا موجود"

أنا: ماهية ذاتيه مستقلة استقلالاً كلياً عن آدم وعن خطيئته.

أخطئ: فعل حر إرادي.

يستلزم عن هذا

أنا: ماهيه متحققه.

(1) بول ريكور، ص ص 228-229.

موجود: كينونه فعالة مستقلة.

خاتمة:

حل أوغسطين لمأزق الشر هو دراسة فريدة من نوعها، فبعد أن أعطته كل الفلسفات التي سبقته مشروعية وجودية واعتبرته وجوداً مستقلاً بذاته تمثله قوى خارجيه كالطاوية والزرادشتية والمناوية، أو داخلية كالجسد عند افلاطون وغيرها، جاء أوغسطينس ليسحب منها هذه الاستقلالية الانطولوجية ويعيد للشر حجمه الحقيقي؛ فاعتبر الشر مجرد فعل أو سلوك يقوم به الانسان لنقص الخير في قلبه وابتعاده عن الرب، وكلما زاد ابتعاده عن الرب كلما نقص فيض الخير عليه؛ فتكون بذلك التصرفات والافعال الناتجة عن نقص الخير هي ما يسمى بالشر.

طمس الفيلسوف أي شبهة قد تمس الذات الالهيه وتحد من خيريتها المطلقة، فالله خيرٌ مطلق وكل ما هو موجود من صنعه هو حسن جداً، واعتبر أن ما تم تداوله في الفلسفات بعيد كل البعد عن الحقيقة التي تجلت في الدين المسيحي وحده، بوجود اله واحد مصدر الخير، ولا وجود لما يسمى بالشر، كما سحب عن الجسد تهمه مصدرية الشر عكس الفكرة المتداولة القائلة باحتقار المسيحية للجسد، فرجل الدين اعتبر الجسد نصير الرب عندما تمردت عليه النفس بارادتها الحرة. فالارادة الحرة التي منحها الله لجميع مخلوقاته العاقله هي التي اختارت أن تبتعد عن الله واختارت أيضاً أن تطلب النزوات وهي التي ستتحمل مسؤوليتها بعد أن يسود الشر عليها، ليس لآدم أي دخل فيها بعد أن خلصنا السيد المسيح من التبعية للخطيئة الاولى؛ بأن افتدى بنفسه وتحمل الالم وخلّص البشرية، بعد الخلاص فتحت جميع الامكانيات أمام الانسان وله أن يختار وعليه أن يستعد للعقاب أو الثواب في الدينونة الاخيرة. فعل الاختيار الذي تكلفت به حرية الانسان هي التي نقلتنا من السؤال عن مقولة جوهرية الشر إلى الحديث عن عرضية فعل الشر، من أين أتى فعلنا للشر؟؟ بدل ماهو مصدر الشر؟، فالانتقال بالبشر من الجوهرية إلى فعل ثم إلى مجرد رد فعل لهُ نقله نوعية استفاد منها الفلاسفة من بعده خاصة الوجوديون منهم مثلاً حنة أرندت التي استحصرت هذه الفكرة وهي تشاهد محاكمة إيجمان ومنها كتب كتابها تفاهة الشر .

قائمة المصادر والمراجع:

- سفر التكوين
- إنجيل متى
- أوغسطينس، تعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي، دارالمشرق، بيروت، ط1، 2007.
- أوغسطينوس، مدينه الله، تر، يوحنا الحلو، مج2، دار المشرق، بيروت، ط2، ص2007.
- أوغسطينوس، في الحياة السعيدة، تر، يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007.
- أوغسطين، إعترافات القديس أوغسطين، تر، برتي شاكور، مر، ابراهيم صموئيل، دار النشر الاسقفية، القاهرة، دط، 2005.
- أوغسطينوس: حياتك الابدية، تر: الانبا إيساك، دير السريان، لبنان، ط1، 1998.

- أوغسطين: التجديف على روح القدس، تر: تادرس يعقوب ملطي، بيروت، ط2، دت.
- جاريث ب. ماثيوز، أوغسطين، تر، أيمن فؤاد زهري، المركز القومي للترجمة-آفاق للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013.
- هنري ايرينيه مارو ، أوغسطين والاعسطينييه، تر، سعد الله سميح حجا، دار المشرق، بيروت، ط1، 2007.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دط، 1982، ص58.
- إيتين جلسون، روح الفلسفه المسيحيه في العصر الوسيط، تر، امام عبد الفتاح امام، مكتبه مدبولي، مصر، ط3، 1996.
- كريستيان نادو، المفردات والاسلوب، تر، شادي رباح نصر، دار الناي، بيروت، ط1، 2014.